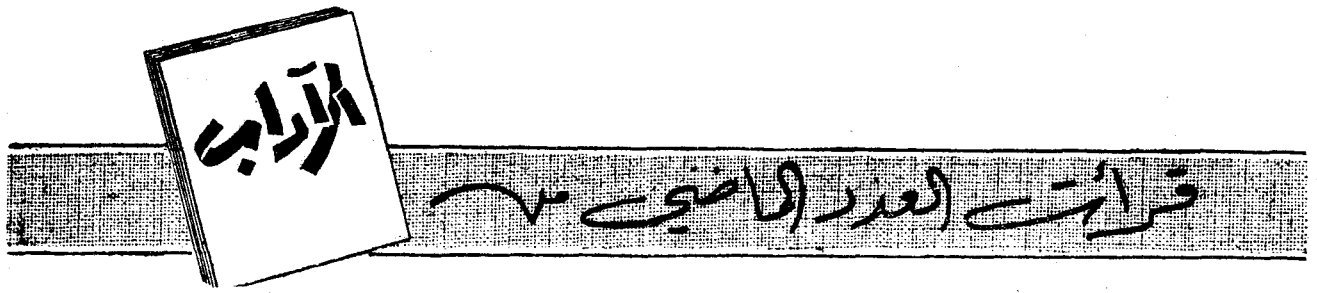

الأبحاث

بقلم حافظ الجمالي

منذ مدة غير بعيدة ، عدت الى قراءة كتاب قديم للدكتور زكي نجيب محمود (١) عنوانه : جنة العبيد او ادب المقالة . لم اعد الى هذا الكتاب عمدا بل بسائق المصادفة المحضة . فوجدت فيه ذكريات قديمة ، قديمة كانت مختفية في زوايا صفحاته المختلفة ، كأنها بقيت هناك لتشير الى عهدي الاول به .

وليس المهم ما عاصر هذا الكتاب من ذكريات بقيت لي من عهد قراءته الاولى ، ولكن المهم ان فيه نظرية في المقالة ، يعرضها صاحبها في السطور الاتية

« ان الذي اريد ان اؤكده مرة اخرى هو ان المقالة الادبية لا بد ان تكون نقدا ساخرا لصورة من صور الحياة او الادب ، وهدما لما ينشبث به الناس على انه مثل اعلى ، وما هو الا صنم تخلف في تراث الاقدمين . اما ان كان الفصل المكتوب بحثا رصينا ، متسقا ، فسمه ما شئت ، فقد يكون علما ، وقد يكون فصلا في النقد الادبي ، ولكنه ليس مقاله ادبية ، كما انه ليس بقصيدة ولاقصة .»

هذه نظرية في ادب المقالة ، يستعيرها الدكتور محمود من الادباء الانكليز ، ويحاول اشاعتها في الرأي العام الادبي العربي ، وينشيء كتابا كاملا ، كل ما فيه مقالات مستوحاة من هذا الرأي ، وآخذة به . ولا ادعي اني اقرأ كل ما يكتبه ادباؤنا في العالم العربي ، لكنني لم اجد فيما قرأته ، اي تعليق على هذا المذهب الذي يدعو اليه الدكتور محمود، هذا فضلا عن ان الدكتور محمود نفسه لم يعد يدعو الى هذا الرأي فيما يصدر عنه ، وقد يكون ما يزال عليه ، الا اننا نفرض عندئذ انه رأي مستكن في قرارة نفسه ، لا يوجه له سلوكا ، ولا يعين له اسلوبا ، ولا يضمه الى جماعة تبرز فيها مثل آرائه .

ومهما يكن من امر ، فان ادب المقالة ما يزال على عهده في عالمنا ، غير متأثر بما يضعه لهالادباء الانكليز وغير الانكليز من حدود ، وما يزال بيننا من يكتب المقالة ، لا لغرض واحد ، بل لكل الاغراض ولا باسلوب واحد ، بل بكل الاساليب .

وعلى ذلك فان فقدان المقاييس الاساسية التي يمكن الاعتماد عليها في نقد « المقالات » هو الذي يضطر الناقدين الى الوقوف من كل « مقالة » موقف التعارض لا موقف التقابل ، اذا جاز لنا ان نستعمل هنا لغة الاديب الاستاذ محي الدين محمد . ولو كانت هنالك مقاييس معينة ، وقواعد متفق عليها ، في النقد ، لكان هذا النقد عملا اسهل وايسر مما هو الان بكثير . الا اننا ما نزال على عهدنا بانفسنا : لكل وجهة نظر هو فيها سجين ،لا يستطيع تجاوزها ، بفتح نفسه للاخرين ، اوليست « الايكوسنترية » سمة طفلية ، ما زلنا نلمسها في الشيء الكثير من صور تفكيرنا وعملنا وادبنا ؟

عيوب الحياة العربية الراهنة
بقلم عبد اللطيف شرارة

واذا انتهينا من هذه المقدمة ، وحاولنا الان ان نتعرض لنقد الابحاث ، ابحاث العدد الماضي من « الآداب » لكان الدور الاول في النقد لمقال الاستاذ شرارة ، في عيوب الحياة العربية الراهنة .

والاستاذ شرارة شخصية محببة لدي ، عزيز علي ، فلقد قرأت له منذ زمن بعيد ، كتابا عن « روح العروبة » حاول فيه ان يستقريء صفات « الروح العربية » من خلال آثارها ، كالادب ، والاخلاق ، والدين . وما زال كتابه هذا تتلقفه مني الايدي ، فلا يتركه هذا الا ليأخذه ذاك . وحسبي ان اخبر الاستاذ شرارة ، اني لم اعد آمل « بالقبض » على كتابه هذا ، بعد ان استعارته مني زمر متتابعة من القراء والمتتبعين . وكذلك فقد قرأت له كتابا صغيرا ، ظهر منذ عهد قريب ، يتناول فيه مقومات القومية العربية ، بالبحث والتحليل ، ويلقي فيه بدلوه بين الدلاء التي تحاول ان تقف في وجه الشعوبيين ، دفاعا عن القومية العربية

واقول هذا كله لاشير الى ما بيني وبين صاحب هذا المقال ، من تعاطف ومودة ، على الرغم من اننا لم نتلاق بعد . الا ان ذلك لا يحول بيني وبين التعليق بجملة ملاحظات على مقاله هذا ، واخال ان مثل هذا التعليق لن يفسد ما بيننا ، على البعد ، من مودة واخاء.

واول ما اقوله انالموضوع نفسه ليس بجديد قط ، وقد يتساءل الانسان اهنالك حقا مواطن عربي واحد ، رزق بعض الوعي ، ثم هو يجهل عيوب الحياة العربية الراهنة ، كالفقر ، والجهل ، والمرض ، وما هو جزء لا يتجزأ من هذه المنظومة الانيقة ، التي طالما سعد بها شرقنا العربي ؟

وليس حراما ، آخر الامر ، ان نكتب في موضوع غير جديد ، ولكن الذي لا يجوز ابدا ، هو ان لا تكون بين ايدينا مادة جديدة نضيفها الى ما نعرفه ويعرفه الناس عن الموضوع القديم ، ولئن جاز هذا اخيرا فانه يبقى ان نعبر باسلوب جديد عن كل تلك المعارف القديمة ، ولئن فاننا هذا كله ، فما ندري ماذا يعني ان نكتب ما نكتب . ولست ادري اين قرأتعبارةمنهذا النوع:«اذا اردتانتكتبفاي موضوع،ووسعكانلا تكتب فيه،فافضل ما تفعله ،هوالا تكتب» واظن انالذياراده صاحبهذه الكلمة ، هو ان لا يحاول الانسان الكتابة الا وقد امتلات نفسه بثروات غنية ، بلفت من التوتر الحد الذي لا تطيق النفس معه الا ان تفيض به على الاخرين.

(١) تعود اخواننا في الاقليم المصري ان يقولوا : دكتور زكي محمود ، ودكتور فلان او فلان .. اما في اقليمنا السوري فيقولون : الدكتور فلان .. وعبثا احاول هضم التعبير المصري ، ذلك انه يستعير كلمة اجنبية ويأبى ان يعربها تعريبا كاملا ، حتى تبدو كرقعة بشعة في ثوب انيق !

وبعد فكل الناس يعرفون ان الفقر صفة عامة من صفات المجتمع العربي، وكلهم يعرفون ايضا ان ارضنا غنية بثروات لا تبرر وجود مثل هذا الفقر ، وكلهم يعرفون ان الحكام الخونة كنوري السعيد واشباهه ، قد تآمروا مع الاجنبي على ابقاء الشعب العربي، متأخرا ، جاهلا ، فقيرا ، وكلهم يعرفون كذلك ان موالاة الغرب لم تكن ، عند هؤلاء ، لا عقيدة سياسية ، ولا قناعة وجدانية ، ولا محاولة لتمثل حضارة الغرب ، وان اولئك الخونة من السياسيين لم يكن لهم الاهم واحد : خدمة مصالحهم الشخصية ، عن طريق الحكم ، والبقاء في هذه السعادة ، ولو كان ثمن ذلك هدر دماء المواطنين . وكل الناس يعرفون ان الغرب هو الذي اخرج العرب من فلسطين ، واعطاها لليهود ، مرتكبا في ذلك اكبر جريمة انسانية ، وان هذا الغرب نفسه هو الذي يقوم بحرب الابادة في الجزائر العربية ، وانه ما يزال يتآمر على العرب ، ويحول بينهم وبين تحقيق اي مطمح من مطامحهم المشروعة. فاين الجديد في هذا كله حتى يستحق منا ان نعود اليه؟

ومع ذلك فان هنالك نقطة جديدة في هذا المقال ، او قل فكرة جديدة، هي النظر الى « الرجل السياسي » على انه « ظاهرة » تعبر عن وضع اجتماعي قائم ، في شبه حتمية لا بد منها . ولكني اجد هذه الفكرة صحيحة من جهة ، وخاطئة من اخرى . انها صحيحة لان امثال نوري السعيد ما كانوا ليستطيعوا تسلم مقاليد السلطة الا في ظروف من النوع الذي كان قائما في البلاد العربية .. وهي خاطئة لان في وسعنا دوما ان نتصور الرجل السياسي بطلا سباقا ، يناضل من اجل تحرير امته ، ودعم استقلالها ، واسترداد كرامتها . وهذا يعني ان الظروف نفسها قد تفرض رجلا يصورها ، كنوري السعيد ، او رجلا ينقض عليها كجمال عبد الناصر ، او ابطال جبهة التحرير ، وزراء حكومة الجزائر الموقتة . افيمكن اذن ان نقبل هذه الحتمية ذات الطرف الواحد ، على نحو ما جاءنا بها الاستاذ شرارة ؟

ولنقف الان عند هذا الحد من نقد الاستاذ شرارة ، اذ لقد طال الحديث ولو تابعته الى نهايته لكنت بحاجة الى جملة من الصفحات لا يتسع لها الموضوع .

ولن اختم الحديث قبل ان اهنيء الاستاذ شرارة على اكثر ما يكتبه في كل المجالات الاخرى ، بلغة صافية ، واسلوب رائق ولاهنئه مرة اخرى على ان كثيرين من شباب الجيل الصاعد ، يعجبون به ، ويقرأون له ، ويتتلمذون عليه ، ولو من بعيد .

ثورة .. موتسارت ... وامريكي

بقلم نجيب المانع

وهذا مقال اخر لكاتب اتعرف اليه من جديد ولكني حقا سعيد بهذه المعرفة . ولست ادري اقرأ هذا الكاتب نظرية الدكتور محمود ، ام لم يقرأها ، ولست ادري : أيتبنى هو مثل نظريته في ادب المقالة ، ام لا يتبنى ، ولكني اشعر انه اقرب الناس الى الاخذ بنظرية الدكتور محمود .

هنا ، لا يشعر القارىء انه امام نظرية يعرضها صاحبها من البداية الى النهاية ، ولا تجاه رأي متسلسل الفقرات ، واضح المقدمات والنتائج ، ولكنه حقا جملة خواطر ، كعنوانه تماما .

وعندما ينتهي القارىء من هذا المقال ، يشعر انه امام كاتب غني الثقافة انيق الاسلوب ، مفعم النفس بالعواطف النبيلة ، والوطنية الجميلة ، ولا شك ان هذه الكلمات تبدو باردة جدا كنعوت ، الا اننا لا نملك اسلوبا اخر نعبر به بالكلمات عما نشعر به من صور الاعجاب والتقدير .

ومع ذلك فان الانطباع الذي يتركه هذا المقال اعقد بكثير مما وصفناه به. والحق ان الاسلوب اريستوقراطي الى ابعد حد ، ولكنه يستخدم لتصوير معان شعبية الى ابعد حد ايضا . غير ان هذه المعاني الشعبية ، تقفز بحكم هذا الاسلوب نفسه ، قفزات بورجوازية بل واريستوقراطية ايضا ، حتى لقد استطاع « حذاء » ذلك المسكين الذي كان يعزف كونشرتات باخ وموسيقى موتسارت وبيتهوفن عنده ، كوسيلة لطلب الصدقات ، ان يرغمنا على الانتباه اليه ، والوقوف ، وما اروع ما يقوله الكاتب في وصف هذا الحذاء :

« على ان احذية البؤساء هوايتهم ، فالاحذية الانيقة متشابهة لا لون لها ولا شخصية ولا تاريخ وليست تختلف الا الاحذية التي لهثت كثيرا في الطريق ، وتشردت طويلا في المنعطفات » .

اما وصف الامريكي « للامريكي » فاروع من رائع ، واجمل من جميل. وليست هنالك اية مبالغة في القول ان اناقة الوصف لا تتجاوز صدقه في شيء.

ولست ادري بعد ذلك لم يشعر القارىء ان المقال يتعمد اثارة الاعجاب، او بهر الانظار ، بما يملأ به نفسه من « مضامين » ثقافية متنوعة ، كالموسيقى والميثولوجيا ، وبما يشير اليه صاحبه من رحلات كبيرة الى اضخم العواصم واغناها مدنية وثروة .

واخيرا فان هنالك تساؤلا لا بد منه : اترى صاحب المقال ، المتفائل بمستقبل الحضارة الغربية ، متفائلا ايضا بمكنونات الحضارة العربية ؟

دمشق — حافظ الجمالي

القصص

بقلم صدقي اسماعيل

مهما تختلف وجهات النظر في فن القصة القصيرة واساليبها واهدافها، فان هناك حقيقة لا سبيل الى الخلاف فيها هي ان ما يبرر كتابة القصة هو جدة موضوعها . فمهما تكن القصة من العناصر الفنية كبلاغة العبارة وجمال الصور وحرارة الاسلوب فان العنصر الاساسي فيها هو ما تنطوي عليه من صورة جديدة للحياة وما تحمله من معنى يجعلها جديرة بان تكتب ، ان تكون شيئا من تجربة الكاتب الفنية وان يتناقلها الاخرون.

ولا يعني ذلك ان يكون موضوع القصة غريبا غير مالوف ، فابسط مظاهر الحياة يمكن ان يكون مصدرا للتجربة الفنية ، بل يعني ان فن القصة يقوم بطبيعته على الموضوع الشيق : ماذا يريد الكاتب ؟ واية صورة يحرص على نقلها الى الناس . ومن ثم فان كاتب القصة مطالب بالبساطة في التعبير قبل كل شيء : ان تكون صيغته الفنية شفافة الى ابعد حد ، تعرض على القارىء صور الحياة بكل ما فيها من عفوية وحرارة ووضوح .

ولا تعني هذه البساطة صفاء الكلمات والتعابير فحسب ، بل تعني ايضا وضوح الموضوع : ان يحسن الكاتب نقل ما يحسه من التجارب ، واثارة ما يريده من مشاكل الحياة . وحتى عندما تكون القصة رمزية او فلسفية فان حوادثها يجب ان تكون واضحة بينة قادرة على بعث التساؤل الذي كتبت من اجله . ولكي يتوفر مثل هذا الوضوح يجب ان تكون ثمة حدود صريحة للمعنى الذي يريده الكاتب ، ذلك على الاقل ما تقتضيه القصة الصغيرة بصورة خاصة . ففي طبيعة هذا النوع من الفن القصصي انه يتناول الحياة في زاوية محدودة من جوانبها ، دون ان يطمع الى اقحام عدد من القضايا والصور في موضوع شامل يتناوله من جميع

نواحيه .

على ضوء هذه الملاحظة البسيطة نتناول القصص الخمس التي نشرت في العدد الماضي من الاداب بشيء من النقد .

عندما يلد الرجال ـ لسليمان فياض

كتبت هذه القصة باسلوب بسيط حي، ينم عن موهبة فنية. غير انه كان بمكن ان يكون اكثر بساطة وقوة لو ان الكاتب اوجز قليلا في سرد التفاصيل المتشعبة التي تلقي على القصة طابع الرواية احيانا وتمنع القاريء من تتبع الخيط الذي يربط حوادث القصة ..

وعلى الرغم مما في هذه القصة من صدق ، فانها تنطوي على كثير من نقاط الضعف .

انها تبدو لاول وهلة عرضا مزدحما بالصور والحوادث لا تتبين القاريء خلاله الموضوع الذي اراده الكاتب .

بكر طالب في المعهد الديني يراقب الشارع من الرصيف وهو نهبة لذلك القلق العميق الذي يحسه جيل من الشبان يتألمون لانهم يرون الاشياء غير معقولة ، ويحس في الوقت نفسه رابطة ـ لا سبيل الى تحديدها ـ بفتاة اسمها سكينة ، هي الشخص الرئيسي في القصة على ما يبدو.

وسكينة هذه فتاة من الشعب تضطر الى السقوط من اجل اللقمة ولكنها لا تريد هذا المصير .

وهنا جنود انكليز يستبيحون كل شيء في سبيل رغباتهم : العار ، اطلاق الرصاص ، الانحراف الاثم ..

وجنود وطنيون يحرسون المحطة ، ويحملون من الطيبة ما يجعلهم اصدقاء لابناء الشعب .

وثمة هندي مسلم همه ان يحصل على نسخة من القرآن كتعويذة تحميه من الموت في ساحة الحرب .

واشخاص اخرون : شوقي ، هلال ، واليصابات ملكة الانجليز ، وحشد مزدحم من الاشياء والحوادث يجعل القصة اشبه بفصل كبير من رواية تبرز خلاله مواضيع عدة ، كان يمكن ان يكون كل منها قصة قصيرة (مصير سكينة) . (هموم بكر) . (سفالة الجنود الانكليز) (تدين الهندي) ..

وخلال هذا كله يصر الكاتب على ان يتم ملاحظاته بين حين واخر في آراء عابرة اشبه بالحكم التي كان يمكن ان يستغني عنها :

« ان تكون مسافرا وتقف على محطة في انتظار قطار ما ، ذلك شيء مقبض » « السير على شاطيء بحر مويس اواخر الخريف في قلب الضباب الرمادي متعة جميلة جدا » . « عندما ينام الانسان سليما معافى. الخ. ان رائحة الحريق حين تسد كل منفذ لاية نسمة طليقة... لا بد تكون آتية من بيت يحترق » . « ان يجتاز الانسان الف عام من الزمن دفعة واحدة ، ان ذلك لمرعب حقا »..

اربعة من الريف ـ علي بدور

قصة فتاة يكتشف الطبيب انها مصابة بالسرطان في العظم . كتبت باسلوب هادىء متقن . كان يمكن لهذه القصة ان تكون صورة فنية جميلة لولا الحواشي الكثيرة التي اقحمها الكاتب في عرضه . فقد اسهب في وصف الثلاثة الذين قدموا مع المريضة الى عيادة الطبيب دون ان يكون لاي منهم موقف يلفت النظر ، واسهب في موقف الطبيب الذي اراد ان يعطي مغزى (فلسفيا) للحادثة ، فيلجأ الى عمر الخيام ، ويختم القصة بهذه الكلمة : « كلنا في هذه الحياة زينب » ـ وهو اسم الفتاة ـ

ان عرض الحياة كما هي ، هو في فن القصة ابلغ تعبيرا واعمق اثرا من كل تعليق .

الوتر المشدود ـ خالد الشريقي

تحمل هذه القصة موضوعا مألوفا هو مأساة فتاة تتلمس حريتها . وعلى الرغم من بساطة هذا الموضوع فان الاسلوب الذي عرضت فيه ينطوي على شيء من الاضطراب والتصنع والتكرار . كثير من الغموض ولا جديد .. فتاة في تجربة الحب الاول ، تقف في حيرة واضطراب بين اب حنون يفهمها جيدا ويثق بها ، وام انانية قاسية تساورها الشكوك ابدا ، ورفيقات يتحدثن حديثا مبتذلا عاديا عن الحياة والحب وما الى ذلك .. والمحور الذي تدور حوله القصة هو تحليل الموقف النفسي للفتاة ولا شيء من هذا التحليل الا ما الفناه من افكار واحاديث حول هذا الموضوع . حتى اطراف الحوار تبدو باهتة مألوفة : ـ ما معنى ان يلحق شاب بفتاة ؟

« ـ لا بد انه احبها .

« ـ وماذا يريد بحبه ؟

« ـ ان يبثها شكواه ... الخ

وعلى الرغم من ان في القصة نبضة من الحياة تشعر القاريء بانها تجربة قد عاشها انسان فان ما فيها من الضعف يفقدها طابع الحياة والتشويق . ومن مظاهر هذا الضعف تعدد الجوانب التي يتناولها الكاتب، فهناك مثلا صداقة الاب والبنت ، والكراهية المتأصلة بين الاب والام ،وغرور الفتيات وثرثرتهن ، وقصة الحب المألوفة ... جوانب متشابكة تفقد القصة في النهاية كل تأثير على القاريء .

ومثل هذا الاضطراب يبدو في الاسلوب ايضا ، فالقصة ممتلئة بالعبارات المتكلفة التي تفسد جوها العاطفي ، منها هذه العبارات : « ستنزرع الغضب ما بين حاجبيها . » . « وهربت من شفتيها ابتسامة عجينية » « كانت تشعر بشلالات من الانظار تنصب عليها . » « كانت تعتقد ان النوم يأكلها » . « الياس الذي نبت في وجهه .. »

هذا عدا العبارات المكررة دون ان يكون ثمة ما يبرر تكرارها . منها « حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل » وهي عبارة ترددت في القصة اكثر من عشر مرات ، وعبارة اخرى جاءت اكثر من سبع مرات ايضا هي (لا تعجلي في ذهابك ، انت تعبة وبيتك بعيد) .

قليلا من البساطة والصفاء، فتجارب الحياة اجمل من ان تنثر عليها قشور الالفاظ والعبارات .

ايام ويموت الرجل ـ جان الكسان

رجل في الثمانين يحتضر ، مصاب بقرحة بالمعدة وتضخم في الرئتين وشلل في القدمين ، وقد يقف قلبه فجاة ويموت . ولكنه مع هذا كله يحرص على ذكرياته البعيدة وهي قصة نضاله ضد الاحتلال الفرنسي يوم ميسلون .

تتوزع القصة ثلاثة اجواء ، على الرغم من انها لا تكاد تملأ الصفحتين: بطولة الرجل ايام الشباب . تعليقات القاص على الحياة المثقلة بالتفاهة التي يحياها هو . رثاء الرجل المحتضر . وهذا التوزع هو ابرز جوانب الضعف على الرغم من الطابع العاطفي الذي يطبع صورها جميعا وينم عن شعور انساني طيب .

اما الاسلوب فانه يفتقر الى البساطة ولا سيما في مثل هذه العبارات: الفتيلة لا تزال منذ ساعة تمط بلسانها لتلحس بلور زجاجة القنديل بلعابها الجاف الاسود ، فتتراقص ... الخ .. انه يريد ان ينداح في

دوامة تدور به ... الخ .. سيحقن ايامي باشياء قاسية .

القطار يخترق الزمن والبشر ـ عبد الهادي البكار

في هذه القصة صورة غانية مستهترة علمتها تجارب الحياة ان تكون نموذجا للانانية والقسوة . فهي تقف امام الحياة في تمرد ، ولكنه تمرد اليائس الذي فقد كل شيء الا الاستمرار في مصيره الحزين .

على الرغم من عناية الكاتب بالصور الجزية التي يشير اسلوبه في التعبير عنها الى موهبة قصصية فان في القصة الكثير مما يفقدها قيمتها الفنية .

فالبطلة تمثل نموذجا يعيش في الذهن اكثر مما يعيش في الحياة ، ويخيل الى القارىء انها هيكل يحركه الكاتب لكي يعبر عن فكرة معينة او شعور معين . وقد كان من الافضل ان يكون هذا النموذج اكثر واقعية وعفوية .

وتسود القصة نزعة الى الحكم على الاشخاص والحوادث والاعمال . وذلك مما يجعل القصة في النهاية اشبه بالموعظة مع ان المحور الذي تدور حوله هو تصوير نموذج انساني معين لا يقصد منه الحكم الاخلاقي. وتجري على لسان البطلة تساؤلات وافكار قلما يعرفها هذا النوع من النساء « المبادىء ، المثل العليا .. الى اين .. » الخ ..

وكان من الافضل ان تحل المواقف الحية والحوادث محل التساؤلات .

لنتصور الحياة في حرارتها وحركتها العفوية دون ان نوشيها بالتصورات والافكار !..

من اجل العدالة ـ وجيه رضوان

مسرحية تاريخية قصيرة في ثلاثة مشاهد ذات حوار جميل لولا ان ما فيه من افكار واجواء هو من الاشياء المألوفة العادية .

في مطلع القرن العشرين اندلعت في مقاطعة سلافيا ثورة شعبية ضد الملك الفاسد اسكندر . جنديان يطاردان الثائر بترو فتفتح لهما امه بيتها وتحسن ضيافتهما وبينما هما ينتظران عودته لاعتقاله يعلن الجيش ثورته على الملك وينضم الى الشعب الذي تنتصر قضيته العادلة .

لولا الاطار التاريخي لما كان هناك ما يبرر كتابة هذه المسرحية على هذا النحو الذي اصبح من ميادين الصحافة اليومية ، وقد كان يمكن ان يكون الحوار اكثر عمقا وقوة في تناول قضية النضال الشعبي والحرية .

دمشق — صدقي اسماعيل

القصائد

بقلم يوسف الخطيب

كلمة« شعر » في حسابي الخاص ، شيء مقدس ، محراب يصل بالله. ومهما يكن الشعر في حساب الاخرين ، فهو على اي حال ، فن الامة العربية عبر التاريخ .. الفن الذي لم يزاحمه الى يومنا فن اخر ، رغم ما تجيش به حياتنا الفنية من محاولات شتى ، في القصة او في المسرحية، او في الموسيقى او في الرسم ..

اترانا بحاجة الى استعراض عصر الادب العربي ، للبرهنة على هذه الحقيقة ! !

لقد كان الشعر اول ما التقت به النفس العربية بعد عصر الانحطاط ، وعانقت فيه اصالتها .. كان ـ وهو الذي يلفت النظر ـ اول ما بحثت عنه ، قبل ان تبحث عن حاجاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل لقد كان هو الحادي بها الى مرحلة البعث هذه التي نقطعها اليوم .

وكلمة « شعر » ـ في حسابي الخاص ايضا ـ بحر بعيد القرار ، لا سبيل الى نفاد كنوزه البكر ، بينا نحن الشعراء نلهو على شاطئه القريب ، نعبث بالمحار ..

ان الذي نخشاه على شعرنا العربي ، هو ان نفقد التواضع من نفوسنا، وان نحسب اننا ردنا كل افاقه .

التواضع المبني على اساس راسخ من الثقة والطموح ، الزم للفنان ـ اكاد اقول من الموهبة نفسها .. والفرق واضح ولا شك ، بين الفنان الذي يضع نفسه دائما في السفح ، والفنان الذي يقنع نفسه قسرا انه بلغ القمة .. الاول يرفع بصره دائما الى اعلى ، وينتهي به العمر ولا ينتهي من الصعود .. من النمو الحقيقي ، والاكتشافات الفنية الخالدة ، والثاني لن يرى امامه الا الانحدار من كل اتجاه ، فهو لن يصعد بعد ، بمعنى انه توقف ، بمعنى انه مات .

فالتواضع ـ ولا احسبني مبالغا ـ من اعضل مشكلات الفنان العربي الشاعر .

انني من خلال هذه النظرة للشعر ، اتساءل عند قراءة كل انتاج جديد: اين هو الكسب الذي اضافه هذا العمل او ذاك لتراثنا الادبي .. اين هي المقومات التي تسمح لشاعر ان يقول : هذه قصيدة جديدة . !

وهذا التساؤل ، يعود بنا مباشرة ، الى الحديث عن الشعر الحر ، فمن ملاحظة السنوات العشر الماضية ، التي انقضت على تجربة الشعر الحر.. ولو اجرينا ما يشبه الحساب الختامي عن هذه الفترة ، لاستطعنا ـ وملء ايدينا الحق ـ ان نهدىء من تلك الحماسة الطاغية ، التي التهبت في اقلام بعض النقاد ، والتي كادت تلغي كل قيمة فنية لما عدا الشعر الحر ! ولاستطعنا ايضا ان نلقي قسطا كبيرا من التبعة على هذه التجربة ، لما تردى اليه انتاجنا من سرعة وسطحية وتهافت .

عفوا ـ اشير هنا الى انني لست من اعداء الشعر الحر ، فمن السخف ، او من عدم الاخلاص للفن نفسه ، ان نقف في وجه هذا التيار رغم ما فيه من عدم الاصالة ، ومن الاخذ المباشر ، الذي لم نتمثله ، عن شعر الغرب . فنحن لم نبدع شيئا اسمه الشعر الحر ، بقدر ما نسجنا على منوال الاخرين ..

ولكنه مع ذلك تيار لا نملك الا ان نعترف به ، بل هو مظهر من مظاهر الحركة والتجديد ، نسيء الى الادب العربي نفسه ، اذا نحن اقمنا في وجهه السدود .

ولكن ، اين هي الوعود التي انتظرناها عشر سنوات ، اننا نلاحظ ـ باستثناء بعض القصائد ، لبعض الشعراء ـ ان الشعر الحر كله ،طوال هذه الفترة ، ليس الا قصيدة واحدة متصلة رديئة .. بمعنى ان الشعر الحر ـ لاخصومه ـ هو الذي يقدم عن نفسه اسوأ تقرير .

اول ما نلاحظه من حسابنا الختامي هو ان الشعر الحر الجيد القليل كان لشعراء ذوي نشأة كلاسيكية جيدة .. فمن ثلاثي العراق : السياب والملائكة والبياتي ، الى ثلاثي المتحدة : القباني وحجازي وعبد الصبور ، نرى في البدء اساسا كلاسيكيا متينا ، يشد ـ على درجات مختلفة ـ بناء القصيدة الحرة . بينما نلاحظ عند اصحاب النشأة الحرة ـ باستثناء الامثلة القليلة الشاذة ـ نزوعا واضحا الى الاهمال وعدم الاكتراث في

فنية القصيدة، طالما ان الشعر الحر في اعتقادهم ما هو الا الانطلاق، مجرد الانطلاق ، من قيود عمود الشعر !

ثانيا ـ انني افهم الانطلاق ، ولكن شريطة ان يسمو دائما الى ما هو اكمل واجمل ، فكيف نتصور الخروج عن الموسيقى التقليدية ، اذا نحن لم نستطع ان نعوض عنها ؟ .. اننا لكي نستغني عن عنصري الموسيقى التقليدية « الوزن ، وعدد التفعيلات » ينبغي ان تكون اداتنا الجمالية على درجة قصوى من الرهافة والابداع لتبعث الجو الموسيقي في كلمات الشعر الحر ، هذه التي استغنت عن الوزن وعن عدد التفعيلات . غير ان واقع الشعر الحر في كثير من الامثلة يثبت عكس ذلك .

ثالثا ـ لقد كانت ابرز حجج المبشرين بالشعر الحر ، دعوى ان الشكل الكلاسيكي يحمل في طبيعته عيب « الرتابة » ثم اذا بهذه « الرتابة » تظهر في الشعر الحر ، بصورة اقوى واخطر .. وهنا لا املك الا ان اثني على شاعرتنا الملهمة نازك الملائكة ، لنبوءتها التي تحققت ، بمظاهر انحسار الشعر الحر عن الاوزان التقليدية شيئا فشيئا ، ليتقلص في اغنية الشيطان هذه ـ البحر الخبب.. ان خمسا من مجموع تسع قصائد حرة، من قصائد العدد الماضي من الاداب ، نظمت على هذا الوزن ، وناهيك عن جوازاته التي تقربه من النثر . «فالرتابة » الحقيقية هنا لا هناك ، في هذا الضرب الممل على وحدة موسيقية سهلة خاطفة .

هذه الخواطر والملاحظات تواردت علي وانا اقلب صفحات العدد الماضي من الاداب ، الذي تكاد تكون قصائده في الوقت نفسه قصائد العامين الماضيين من عمر المجلة ، اللهم الا من بعض الاعمال الفذة التي نعدها على اصابع اليد الواحدة ..

معذرة اخوتي الشعراء .. فالمطلوب مني الان ، بحكم هذا التقليد الذي سنته « الاداب » ان ادخل الى مقدساتكم ، لاومن بها او اكفر .. ولقد كنت اشتهي لو ان لي واحدة بين هذه القصائد ، لابدأ بنفسي ، واعترف!

مذكرات مسافر ـ كاظم جواد

هذه المقاطع السبع التي تشكل قصيدة « مذكرات مسافر » استوحاها كاظم من محطات جولة غنية في عدة بلدان ، اتيحت له بمناسبة انعقاد مؤتمر التعاون بين الشعوب .

اروع ما في القصيدة مقدرة الشاعر الواضحة ، على ضبط دفقة الشعوري ، والتحكم به ، فقد استطاع كاظم ان ينقل لنا اجمل ما احس ، لاكل ما احس ..

ثم في هذه الاسطر الرائعة ، التي حلقت فوق مستوى القصيدة العام :

من اين من وطني البعيد ؟ ايا عراق ، ايا عراق
لو ان لي في الفجر اجنحة لجئتك بالعناق
متلالئا مثل السهول ، مصفقا كمياه دجله
مترنحا كظلال نخله
من فورة الفرح العميق ، من الربيع ، من انتصاري
وهبوب اضواء النهار
خضراء تغمر بالصفاء حديقتي وسياج داري .

غير ان القصيدة لم تسلم من تكرار القوالب الجاهزة :

الان في عمان حيث الموت والدم والحديد
فهناك صوت الغرب حيث الحقد والدم والطلول

ثم انني اتساءل ان كان من الضروري حشد القصيدة بهذه المفردات ذات الدلالة المعينة : الكادح ، بترولي ، الشعوب ، السلام ، الاسعار ، عصابات ، المعامل والحقول ، حمامة الخ ؟!

ثم اني اصر بعد القراءة المئة ، على اني لم افهم ما قصد اليه الشاعر في هذين السطرين :

ـ انا بين اخوتي الكبار هنا اعز من الصديق
بين النجوم ضحى ، وتحت الشمس في الليل العميق ..

والملاحظة الاخيرة الهامة على هذه القصيدة ، المستوى الضعيف الذي رضيه الشاعر لنفسه في المقطعين الاخيرين ، عند حديثه عن دمشق ، وعن بغداد نفسها ، بلد الشاعر الذي عاد اليه بعد الثورة .. لقد كنت اتوقع ان تكون نفحة بغداد اغنى واروع من نفحات ستوكهولم وبرلين! رغم ان الشاعر ولا اعلم السبب ، قد نظم هذين المقطعين على النمط الكلاسيكي ، على نقيض كل مقاطع القصيدة . ولنلاحظ ما يأتي في قافية المقطع الاخير عن بغداد :

بغداد يا وطني المقدس ، لو سمعت دوي شوقي
لتوهجت قبلاتك الحرى على شفتي وعنقي
وتلفتت عيناك سائلتين عن لفتات طرقي
تهفو الى الحب المجنح ، عبر غرب ، عبر شرق
مترنما بالشعب ، بالسلم الوديع وشمس حقي
انا عائد بعد الغياب بدون قيد ، دون رق

واخيرا ، اين هو النسب بين هذا الكلام ، وبين المقطع الرائع الذي استشهدنا به ؟

جزائري ـ فارس قويدر

قصيدة عادية ، على النمط الكلاسيكي ، وهي واحدة من الخطوات الاولى لهذا الشاعر الشاب ، لم تتضح فيها هويته بعد ، وان كانت تبشر بأخ جديد في عائلة الشعر . غير انني لم استسغ وصف القصيدة بهاتين الكلمتين ، تحت العنوان « اسطورة عربية » ... لماذا ؟!

قطرة حب ـ الشيخ والقيثار
حسن فتح الباب

هاتان القصيدتان اجمل ما في العدد الماضي من الاداب وان كنت اخذ على الشاعر هذه الضبابية الزائدة ، التي تؤدي احيانا الى حجب الصورة عوضا عن تظليلها .. ان الرمز ، وهو تلك الفلالة التي تلقي على جسد الكلمة ، يجب ان يكون شفافا ، ولهذا السبب نرى ان الرمزية في آن واحد قد تكون عامل قوة او عامل ضعف ، باختلاف المقدرة من شاعر لاخر .

وقيمة القصيدتين تنبع مما فيهما من الصدق والبساطة ، ومن هذا الوجد الهادىء العميق ، الذي لا يملك القارىء الا ان ينفعل ويتجاوب معه .

تساءلت للوهلة الاولى عن مبرر نشر القصيدتين معا في عدد واحد ، لشاعر واحد ، ولقيت الاجابة في هذا الخيط الدقيق يربط بينهما ، خيط الضياع في مدينة صاخبة كبيرة ، ضياع الشاعر في المشرب ، وضياع هذا الشيخ المتكيء على اضلاع قيثاره ، يستجدي على الارصفة ، وابواب المحلات العامة ..

الشاعر تحيتي . واعجابي .

اعراس تموز ـ علي الحسيني

هذه القصيدة تعتمد على رمز تموز ـ اله الخصب والنماء ـ للثورة العراقية ، وحبيبته غالية المهر ، التي هي هنا ارض العراق .

انني لم اقرا كثيرا لعلي الحسيني ، ولكنني في هذه القصيدة ، اصفق له بحرارة ..

غير ان القصيدة ـ وما اثقل كلمة « غير » هذه ـ تصلح ان تكـــون نموذجا سهلا ، لبيان عيب من ابرز عيوب الشعر الحر ، اعني الاستطراد وبعثرة الفكرة في صور وتداعيات زائدة ، فبعد ان استهل الشـــاعر قصيدته بهذا المطلع الاخاذ :

« تموز » يا اميري الجميل
يا دفقة الطيوب
يا بسمة السهول ، يا مرافىء الحنان
اتيت ، كذبت الذي يقول :
بان تموز الحبيب مات
في غمرة النضال .. في معارك الجبال
اتيت يا تموز بالعطاء

كان في غنى عن استطراده هذا الضعيف :

وبالثياب الحلى والعطور
والهودج الثمين
اتيت مثلما اتى
في غابر الازمان عنتره
بكل ما يحتاجه زفافنا الحبيب
يادفقة الطيوب ..

وبعد ان قال الشاعر ايضا :

« تموز » اني اذكر الايام من سنين
يوم قدمت بيتنا الكبير
وفي يديك زهرتان حلوتان
وفي فؤادك الصغير
محبة الحبيب للحبيب

كان في غنى عن هذا التفصيل الذي لا طعم له :

يوم اردت ان اكون زوجك الحنون
ويومها ، رايت فيك ما اريد
الحب والايمان والوفاء

وبعد ان قال :

«تموز» قد اتيت بالقليل

كان في غنى عن الشرح التالي :

وابنتي تريد منك ما تريد
من الثياب والحلي والعطور
فلتات بالمزيد .

وغاية ما اطلبه من القارىء ، ان يقرا القصيدة مرتين : في الاولى كما اراد الشاعر ، وفي الثانية ، بعد حذف الزبادات ، وانا ارضخ سلفـا للحكم

انا اسود ـ محمود المحروق

هذا كلام لا علاقة له بالشعر .

الموتى لا يبكون ـ عبد المنعم عواد يوسف

هذه القصيدة ، عبارة عن صياغة دون الوسط ، لفكرة مريضة لا نقبلها. انظروا الى الشاعر الذي حمل مصباح ديوجين ، فلم يعثر علـى «الانسان»» ولاحظوا ايضا ما جره البحر الخبب على انتاجنا من الشعر الحر ، لاحظوا الشكل والموضوع معا :

وخرجت افتش ذات صباح ..
وبكفي يلمع مصباح ...
مصباح يجرح ضوء الشمس ..
اني ابحث عن انسان . .
انسان ما زال يعيش به الانسان . .
وذهبت اليه بكل مكان ....
انفقت على التنقيب زمان ...
ورجعت ولم الح انسان . .
وبكفي ما زال المصباح ..
ويمر صباح تلو صباح ...
وانا لا اعثر بالانسان ...
قتلوه جبابرة القرن العشرين ...

وهل انتبهتم الى « قتلوه » هذه ، التي اعجب كيف فاتت على الشاعر، والمحرر ! (*)

الاحد الحزين ـ خليل خوري

التقيت مع هذا الشاعر اول مرة ، في قصيدة تقول :

هذا الذي ينشر ما بيننا ظلا من المقـت
لو انت لم تصغي الى صوته
لم تمنحيه الجانب الليـنـا لو لذت بالصمت
لكان قال الناس عن حبنا اقوى من الموت

هذا الشاعر الذي اومن به ، فجعت اذ بحثت عنه في قصيدة الاحد الحزين ، فلم اره .. رايت نثرا عاديا ، وكأن جناح الشاعر يوشك ان يلامس الارض ، ولا اظن ان شاعرية الموضوع نفسه ، تشفع للشاعر في شيء .

باريس في الظلام ـ محمد البخاري

كلفتني هذه القصيدة جهدا كبيرا لاكتناه رموزها ، فلم افلح في معرفة هوية الزوج الغائب الذي تتحدث عنه ، ولا هوية « زوجه هناك » ، ولااقول الغائب في رسالته :

غدا سنلتقي هنا اختاه
في « سان ميشيل » نرشف الحياه
نريح فوق شاطيء السين الجفون المنهكه

فاين كان غائبا وهو يشير بكلمة « هنا » لشاطيء السين ! ثم ما نـوع هذه العاطفة في مناجاة زوجه : اختاه !

ان قصيدة« باريس في الظلام » لم تكتب لنا ، على ما اظن .

السيمفونية الثائرة ـ عبد العزيز النعماني

هذه السيمفونية الثائرة ، لا علاقة لها ايضا بالشعر .

وبعد ايها الاخوة الشعراء ، هانذا دخلت الى مقدساتكم ، فآمنت وكفرت ، ولكنني لن اخرج بسهولة !

دمشق — يوسف الخطيب

(*) نحب ان نذكر الناقد الكريم بلغة.. «أكلوه البراغيث!» ـ«الآداب»